

## الفصل التاسع

# التفسير الوظيفي للدراما الاذاعية والتليفزيونية

حين تناول الدراما فى الاذاعة والتليفزيون من حيث الموضوع والشخصيات والأساليب من وجهة النظر الاعلامية والاجتماعية، نجد أن هذه الدراما تعتبر من الفنون الموضوعية وهى الفنون التى «تعبّر عن المجتمع الذى تنبع منه فتؤثر فيه وتتأثر به»<sup>(١)</sup>.

وتصور الدراما التليفزيونية والاذاعية (مجتمعا) من الشخصيات العديدة التى تتلاقى وتتصارع وتتجادب وتتنافر فى بيئة اجتماعية تتحكم فيها عقلية جماعية مشتركة<sup>(٢)</sup>.

ويؤكد فلاسفة الفن أن «الفن علاقات ضرورية بالدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد وغيرها من ظواهر المجتمع، ولكن من المؤكد أن الفنان يستجيب للمصير البشرى استجابة خاصة تميزه عن كل من رجل الدين وعالم الأخلاق والسياسى ورجل الاقتصاد»<sup>(٣)</sup>.

إن ممارسة الفن وتقديره عملتان فرديتان، فالفن يبدأ بوصفه نشاطا فرديا، وهو لا

(١) Lalo C.: Nations d' Esthetique, (Paris. P. U.F.S. me'ed., 1964) PP. 76 - 78.

(٢) Raymon Bayer: Trait d'Esthetique (Colin. 1956) P. 159.

(٣) زكريا إبراهيم: مشكلة الفن، (القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٧٦) ص ١٢٥ أيضا.

عبدالعزیز شرف: التفسير الاعلامى للأدب العربى، (القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٠) ص ١١٧ -

يلتحم بنسيج الحياة الاجتماعية إلا بقدر ما يستطيع المجتمع أن يتعرف على تلك الوحدات الخاصة من الخبرة، مستوعبا إياها في صميم وجوده الجمعي.

ومعنى هذا أن الفن ليس ناتجا فرعيا أو ظاهرة ثانوية تترتب على الترقى الاجتماعي، وإنما هو عنصر من العناصر الأصلية الهامة التي تدخل في تركيب المجتمع نفسه<sup>(١)</sup>.

ويرى «جيو» M.J. Guyau أن الفن لا يخرج عن كونه نشاطا اجتماعيا تنحصر غايته في الحياة أو الواقع نفسه. وحينما يقول «جيو» إن الفن هو «الحياة نفسها مركزة» فإنه يعنى بذلك أن من واجب الفنان ألا يدع الحياة تظفي عليه، بل أن يظل معاصرا لها في تقدمها المستمر، وأن يقف على أشكال الحياة الاجتماعية التي تذوب فيها الحياة الفردية. فالفن عنده اجتماعي في نشأته، وغايته، وماهيته، ومعنى هذا أن الفن في نظر «جيو» ظاهرة ذات طابع اجتماعي، لأن ما يتحكم في الحياة الجمالية بأسرها إنما هو قوانين التعاطف الوجداني، وانتشار العواطف من فرد إلى آخر.

ولهذا فإن «جيو» يرى أن الفن لا ينطوي على ظاهرة (تشكيل ذاتي) فحسب بل هو ينطوي على ظاهرة تشكيل اجتماعي<sup>(٢)</sup>.

ويمكن لدراسة الفن الإذاعي والتلفزيوني، والفن بجميع أنواعه أن تلقى ضوءا كبيرا على الظواهر الاجتماعية، لأن وجودها يعتمد على نقل المعاني، والفن مهتم في جوهره الحقيقي بالتعبير عن العواطف والأفكار ونقلها في صور رمزية. ودراسة ما يجب بالتعبير عن العواطف والأفكار ونقلها في صور رمزية. ودراسة ما يجب على الفنان أن يقوله، وكيف يقول، وكيف تُستقبل رسالته من جانب الجمهور، يمكن أن تزيد من فهمنا لعملية الاتصال الاجتماعي الواسعة التي تجعل المجتمع شيئا ممكنا. وكذلك يمكن أن يكون الفنان المبدع نفسه وسيلة مفيدة لدراسة التغير الاجتماعي والثقافي، لأنه غالبا ما يكون حساسا بدرجة زائدة لما وسيلة في النظام الاجتماعي من توترات. ومن الراجح أن إنتاجه سوف يعكس إحساسه هذا. وهكذا يمكن أن تساهم الدراسة السوسولوجية للفن - إذا أخذناها

(١) Read H.: *Art and Society*, (London, Faber & Fader, 1946) pp. 2 - 7.

(٢) Gayau M.: *L'Art au Point de vie Sociologique*, (Paris, Alcan, onzieme edition, 1930) PP. 3 - 21.

بمعناها الواسع لتشمل الفنان وجمهوره، والانتاج الفني أيضا - فى فهم كل من البناء الاجتماعى والتغير الثقافى. على أنه يجب التعلیم بأن هذا الهدف بعيد لا يمكن الوصول إليه إلا بعد التوصل إلى مجموعة من الأهداف الأكثر تواضعاً<sup>(١)</sup>.

ومن الدراسات الحديثة المفيدة فى سوسولوجيا الأدب؛ دراسة «لوفنتال» - Lowen-thal بعنوان «الأدب وصورة الانسان». وتمثل هذه الدراسة تحليلا سوسولوجيا لمختارات من الروايات والمسرحيات التى ألفها كتاب أوريون فى الفترة من (١٦٠٠ - ١٩٠٠) والقضية الرئيسية عند «لوفنتال» أن الكتاب بصورون بشكل مقنع - ومن خلال اختيارهم اللاشعورى غالبا للجبكة الروائية، ورسم الشخصيات، وتصوير البيئة، والتأكيد على القيم - علاقة الانسان بمجتمعه وعصره. وهكذا يمدنا الأدب الإبداعى بنوع من الوثائق التى تفيد فى دراسة البناء الاجتماعى والتغير الثقافى، إلا أن «لوفنتال» يتجاوز هذه النقطة ليدافع عن الرأى الذى مؤداه أن الكتاب المبدعين يتمتعون بحساسية عالية للتغيرات الأولى فى علاقة الانسان بمجتمعه، وغالبا ما يعكسون هذا الوعى فى أعمالهم<sup>(٢)</sup>. وهكذا نجد إيمان النظر فى كتاباتهم يمكن أن يكون ذا أهمية خاصة لدارسى التغير الاجتماعى.

وتأسيسا على هذا الفهم، يتسنى لنا أن ندرس الدراما الإذاعية والتليفزيونية، كفن له وظيفته الاجتماعية، كما يتسنى لنا أن ندرس «موضوعات» الدراما بأشكالها المختلفة بهدف التعرف على مدى تعبيرها عن المشكلات المجتمعية.

والدراسة الاجتماعية للمضمون فى الدراما الإذاعية والتليفزيونية لا ينبغي أن تقف عند حدود دلالات المضمون فقط، بل يجب أن تتسع لتشمل مدى اتساع الموضوع وعنصر الاستمرار فيه. فهناك موضوعات معينة تتعلق بجزء من الشعب فقط، وهناك موضوعات أخرى تعد مشتركة بالنسبة لطوائف الشعب جميعا، ولكنها لا تظهر الا فى حقبة معينة من تاريخ هذا الشعب.<sup>(٣)</sup>

(١) Barnett James: "The Sociology of Art" in Sociology today by Merton and others (eds Harper Torch book edition, N.Y., 1965) PP. 197 - 214.

(٢) Leo Lowenthal: *Literature and the image of Man*, (Beaco Press, 1957) P.91.

(٣) وهذه الدراسة كانت محور رسالة د. سامية احمد على للدكتوراه عن «التمثيلية التليفزيونية ومشكلات المجتمع المصرى»

ففى فرنسا مثلاً يمكن الحديث عن (أدب المقاومة) الذى ابتدعته أقلام الأدباء خلال فترة الاحتلال النازى لفرنسا. وقد يكون هناك أدب خاص بالحرب التى خاضتها فرنسا ضد الجزائر كما ظهر أدب المقاومة اثناء حرب التحرير فى الجزائر. (١)

غير أنه بالإضافة إلى هذه الموضوعات الوقتية، هناك موضوعات أكثر دواما وثباتا تكشف عن خصائص نفسية واجتماعية للجماعات الانسانية التى تعالج هذه الموضوعات فى رحابها.

ويمكن القول إن هذه الخصائص تتسم بقدر من الثبات النسبى مادامت تظل مادة للموضوعات الأدبية.

وفى الواقع فإن الدراسة الاجتماعية للموضوعات فى الدراما الإذاعية والتلفزيونية يمكن أن تمدنا بقدر كبير من فهم الجوانب الخفية التى «تحدثها عملية التغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمعات، على نحو ما يتضح فى ثلاثية «نجيب محفوظ» (السكرية - قصر الشوق - بين القصرين). وإذا كانت هذه الأعمال بالذات تعد نموذجا للأعمال الأدبية التى يمكن أن ندرسها من وجهة النظر الاجتماعية، الا أن هناك فى الأدب المصرى المعاصر أعمال أخرى تزخر بالمواقف الانسانية والعلاقات الاجتماعية المتشابهة التى يمكن أن تكون موضوعا للدراسة والبحث..

### الدراما والاتصال الاجتماعى:

إن الدراما الإذاعية والتلفزيونية كفن، ترتبط بوسيلتى اتصال جماهيرية هى الراديو والتلفزيون، ولهذا نطرح سؤالاً يرتبط بالدراسة الاجتماعية والاتصالية فى وقت واحد: ماذا عن آثار الدراما الإذاعية والتلفزيونية كفن يرتبط بالاتصال الجماهيرى؟..

حين يتعرض «وشرام» للإجابة عن هذا السؤال، نجد أنه يذهب إلى أن للاتصال الجماهيرى تأثيراً شاملاً، وذلك لسبب واحد وهو أنه يشمل المجتمع ككل، والمجتمع شأنه شأن أى وحدة اتصالية يعمل كمفسر للرموز ومرمز، فهو يفسر الرموز البيئية من أجل

(١) راجع: المقاومة فى الأدب الجزائرى المعاصر للدكتور عبد العزيز شرف: ط٣ - بيروت دار الحيل ١٩٩٢

أبنائه، ويراقب المخاطر، ويتطلع إلى تحقيق الأهداف حتى يصل إلى اتفاق أو إجماع، وحينئذ يستطيع أن يضع سياسة فعالة ويحفظ التفاعل العادي للحياة الاجتماعية ويصونه، كما يساعد الأفراد على التمتع بحياتهم، ثم هو أيضا يرمز الرسائل ويوجهها إلى المجتمعات الأخرى. فالأنتصال الجماهيري الذي يتمتع بقوة وفعالية يمكن من مدّ الأبصار وتفتح الأذان لإيصال الثقافة متمثلة فيما يكتب ويقال إلى آفاق جديدة، إنما يأخذ نصيبا كبيرا من المسؤولية في عملية الأنتصال الاجتماعي هذه<sup>(١)</sup>.

فالدراما الإذاعية والتلفزيونية في ضوء هذا الفهم، تقدم للمجتمع مناقشات تربط الفرد الاجتماعي بالكلّ، كما تُقدّم أنماطا مرغوبة من السلوك، بحيث يمكن القول إن الدراما الإذاعية والتلفزيونية تساهم مع الأنتصال الاجتماعي في نقل الثقافة إلى مختلف قطاعات المجتمع بطريقة لا تحتاج إلى مهارة أو إعداد، فالأمر يستطيع أن يتابع التمثيلية الإذاعية أو التلفزيونية بدون جهد..

والدراما الإذاعية أو التلفزيونية تحاول في بعض الأحيان أن تذهب إلى أبعد من وظيفة التسلية، فتسعى إلى التعبير عن أفكار وعواطف ليست مجرد انعكاسات تسجيلية للحياة اليومية. والملاحظ بالنسبة لمعظم وسائل التسلية الجماهيرية أنها تسعى أساسا إلى الارضاء، والتسلية والتثقيف معتمدة على الحوادث المألوفة والأنماط الاعتقادية والسلوكية التقليدية. ولكنها تعمد في بعض الأحيان إلى نقد، وتقييم وتقديم تفسيرات جديدة «للواقع الانساني».

وهنا يمكن أن تكتسب طبيعة فنية. ولإجدال في أن هذه الوسائل الجماهيرية ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمجتمع المعاصر كأدوات للأنتصال الاجتماعي<sup>(٢)</sup>.

### المشكلات المجتمعية

#### في الدراما الإذاعية والتلفزيونية:

تعني التجربة الانسانية الدراما الإذاعية والتلفزيونية كفن معاصر تجسيد مشكلات المجتمع عن طريق توظيف العناصر الفنية للتمثيلية، وعلى ذلك تضح لنا الصلة الوثيقة

(١) محمود عودة: أساليب الأنتصال والتغير الاجتماعي. (القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١) ص ٨٢.  
(٢) محمد الجوهري وآخرون: دراسة علم الاجتماع. (القاهرة، دار المعارف، ط (٤)، ١٩٨٢) ص ٤٦٣.

بين التمثيلية التليفزيونية كفن وبين مشكلات المجتمع كموضوع أساسى تعبر عنه فى إطار مفهوم التغيير الاجتماعى، ذلك أن هذه المشكلات هى نتيجة التغيير الاجتماعى والتخلف الثقافى، كما أنها تعكس الاختلاف فى سرعة التغيير بين عناصر المجتمع وخاصة بين السلوك وبين القيم التى تحدده. وتظهر المشكلات الاجتماعية فى المجتمعات الديمقراطية الديناميكية بحيث نجد أن التغيير سريع وأن القيم الاجتماعية التى تحبذ العمل نحو تحسين الظروف تنمو بشدة وسرعة، وبذلك يمكن أن نحدد المشكلة المجتمعية بأنها «ظرف يعتقد أنه يبدد قيمة اجتماعية ويدرك على أنه يمكن تغييره بالعمل الاجتماعى البناء». إذن العناصر الثلاثة المكونة للمشكلة المجتمعية هى: الموقف المجتمعى والحكم الخاص بالقيمة، والعمل المجتمعى المناسب<sup>(١)</sup>.

هذه المشكلة المجتمعية هى جوهر الدراما الاذاعية والتليفزيونية، ذلك أنها كفن درامى متفاوت فى سرعة تطويرها للأزمة من خلال الخطوط أو الظروف، والمشهد الدرامى هو أزمة من داخل أزمة، يساعد بجلاء على وضوح النتيجة النهائية. ومن الممكن أن نسمى التمثيلية التليفزيونية أو الدراما بوجه عام «فن الأزمات» كما أن القصة هى فن التطورات التدريجية<sup>(٢)</sup>.

والمشكلات المجتمعية كمادة درامية، تتضمن مواقف يعتقد أنها تهدد القيم الاجتماعية، ولكنها قابلة للعلاج عن طريق العمل الاجتماعى. والتحليل الاجتماع عملياً ينتج عنها انفصام الروابط التى تربط الجماعة، ذلك أن الجماعة تمارس وجودها عن طريق العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين أعضائها، فإذا ما قطعت هذه العلاقات فإن الفوضى الاجتماعية تكون نتيجة لذلك. فانتشار المشكلات المجتمعية معناه أن هناك مواقف

---

Merrill F.E.: *The Study of Social Problems*, (Sociological Review, June (١) 1958) PP. 251 - 262.

Archer William: *Dramatic and undramatic*, "in" Barrett H. Charns European (٢) Theories of the drama. (Crown Publishers 1947) P. 479.

(٣) د. سامية أحمد على: التمثيلية التليفزيونية ومشكلات المجتمع المصرى. رسالة دكتوراه كلية الاعلام جامعة القاهرة.

اجتماعية تهتد القيم الأساسية للمجتمع فى كثير من النواحي مما ينتج عنه بلبلة فكرية وعدم تحديد سلوكى واختلاط فى الأمور والأهداف.

والدراما الاذاعية والتليفزيونية تعبر عن مشكلات المجتمع من خلال أربعة أقسام كبرى من أقسام «الصراع» أولها: الصراع الساكن، وثانيها الصراع الواثق، وثالثها الصراع الصاعد المتدرج فى بطة، ورابعها الصراع الدال من طرف خفى على ماينتظر حدونه.

والدراما الاذاعية والتليفزيونية تجد فى كل مشكلة مجتمعية لونا من ألوان الصراع، فعندما لايقوم عدد كبير من الأفراد بالأدوار الاجتماعية التى حددها لهم المجتمع، والتى يتوقع منهم فيها سلوكا معيناً، يمكن تعريف ذلك بأنه صورة من صور «الصراع» بلغة الدراما. فالصراع «كفاح حول القيم، والسعى من أجل المكانة والقوة، والموارد النادرة، حيث يهدف الأفراد إلى القضاء على أعدائهم»<sup>(١)</sup>. فإذا نظرنا فى مجتمعنا إلى الدور الأساسى الذى يجب أن يقوم به الزوج فى النظام العائلى وجدنا كسب العيش وضمان المورد المالى الكافى للعائلة، فإذا ما عجز هذا الزوج عن القيام بدوره وبمسئوليته نتيجة للبطالة أو نتيجة أزمة اقتصادية، سبب هذا الموقف «مشكلة». كذلك المرأة المتعلمة التى لا تستطيع أن تحقق مايتوقعه منها المجتمع تجاه أسرتها. هذه الأمثلة وغيرها من عدم الاتساق فى البناء الاجتماعى ينتج عنها مشكلات مجتمعية. كما ينتج عنها مواقف صراع داخل التمثيلية التليفزيونية.

ولن يتسنى عزل الصراع والبحث عنه كظاهرة مستقلة، إذ أنه ليس فى العالم شىء منقطع الصلة بما حوله، أو متفصل عن النظام الاجتماعى الذى يعيش فيه، وليس فى الوجود شىء يعيش من أجله فقط، بل كل شىء فى الوجود مكمل لكل شىء آخر.

وفى وسعنا أن نتبع الصراع فى أى شىء وفى أى مكان، ومن ذلك كمثال يوضح

Coser L.A.: The Functions of Social conflict (the Free Press, 1959) (١)

كيف تكون القيمة الاجتماعية محورا للمشكلة الاجتماعية وسببا للتغير الاجتماعي. أننا إذا نظرنا في بعض المجتمعات إلى قيمة الأب في نظر أولاده على أنه سلطة لا يمكن مخالفتها، فإننا نجد أن هذه القيمة بدأت تواجه مواقف جديدة تهزها من جذورها نتيجة انتشار التعليم مثلا. فالأبن المتعلم قد يحاول أن يناقش أباه وأن يناقش اختياره لزوجته، وأن يحاول ممارسة هذا الاختيار بنفسه، وأن يحاول إدارة مسؤولياته على أسس خاصة به. كل هذا يؤدي إلى أن تواجه القيمة الاجتماعية مواقف جديدة تهزها، وينتج عن ذلك مشكلة. «وقد تسبب القيم الاجتماعية تعويقا للحلول المقترحة للمشكلات المجتمعية»<sup>(١)</sup>.

والحدث في الدراما الإذاعية والتلفزيونية يتحقق في صورة مغامرة جماعية ناتجة عن تفاعل داخل العالم الصغير الذي يتألف من شخصيات التمثيلية. وإذا كان الشخص في الحادثة العادية يبقى معزولا في طبقته أو التي ينتمي إليها، فإنه ليس هناك حدث معزول في التمثيلية، بل أنه يمارس تأثيرات مباشرة في الشخصيات وفي المجتمع الذي يعيش فيه. فعالم التمثيلية قد يكون صورة للعالم الكبير، للمجتمع الكبير لاعزلة فيه.

والأساس الأول لجودة الشخصية في الدراما الإذاعية والتلفزيونية ألا تفقد هذه الشخصيات صلتها بالمجتمع الحقيقي. أما الأساس الثاني فهو وحدة الشخصية في عمقها أو ما سماه «أرسطو» التكافؤ المنطقي - كما تقدم - وليس معنى الوحدة هنا سطحية الشخصية، لتمثل فكرة تجريدية؛ ولكنها الوحدة التي تسمح بأنواع من الاختلاف تنسق مع طبيعة الشخصية في مجرى الحدث. والتمثيلية التلفزيونية والإذاعية كفن درامي تتطلب بطبيعتها تعدد الشخصيات، ولكل منها وجوده المستقل، ولكن هذا الوجود لن يتحقق بعزل كل شخصية عن الأخرى فلولا وجود «بولونوس» و«إيفليا» و«كلوديوس» و«جيرتورد» - ضرورة - حول هاملت، لما تيسر له أن يعيش مأساته الفنية في مسرحية «شكسبير»<sup>(٢)</sup>.

P.8.

Merill F.E. & Eldredge H.W.: Culture and Society: An introduction to (١) Sociology, (Prentice Hall, N.Y., 1956) P. 250.

والبعد الاجتماعي مع عنصر الصراع الدرامي يمثلان جوهر التعبير عن مشكلات المجتمع في الدراما الإذاعية والتلفزيونية، وقد عبر «جون جولدسوردي» عن ذلك حيث قال: «إن الفن لا يكون فناً إلا إذا كان مصنوعاً مما أحسه الفنان ورآه، لا بما قيل له، إنه يجب أن يحس به ويراه» وهذا الكاتب الإنجليزي من أنصار الرأي الذي يلزم الكاتب بأن يأخذ مادته الدرامية من الحياة مباشرة، ويقول في ذلك «إن الكاتب المبدع إنما يشكل للعالم من مادة حياته نفسها شيئاً رائعاً، وذلك في الصورة التي تروقه، متبعاً في هذا التشكيل مزاجه وفطرته هو بالذات»<sup>(١)</sup>.

وإذا كانت الحياة نفسها بتجاربها الكثيرة المتعددة، تمثل الدراما بصورة من الصورة، فإن التجربة الإنسانية مليئة بالأزمات الكبيرة والصغيرة، مكتظة بالحوادث التي يمكن أن تتضخم في طريقها نحو قمة، أو نحو ذروة تقرر عندها وجهة من وجهات النظر. ومشكلات المجتمع والعربي مادة يمكن معالجتها درامياً من خلال فنون الدراما التلفزيونية والإذاعية. فالكاتب الماهر ليس بحاجة إلا إلى أن يعرف الناس الذين يعيشون حوله، وما يعانون من مشكلات، ويقوم هو برسم شخصيات قصته على منوالهم، معالجاً خلالها ما يعاني الأفراد من مشكلات.

- تم بحمد الله -

(٢) غنمي هلال: المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، مرجع سابق، ص. ٦٧٩ - ٦٨٠.